نَقْد العَمَل بالتِيَارَات السياسية داخل الحِزب

رحمان النوضة

(الصيغة 4)

في هـذا النَصّ، أنتـقد العمـل بأسـلوب "التيـارات السياسـية" (fractions, courants politiques, political currents)، المُتَوَاجِدَة داخـل الحـزب. وأستـعملُ في هـذا النَـقْد الحُجَج المُسْتَخْلَصَـة مِن تجربـة استعمال هذه "اليارات السياسية" داخـل "الحـزب الاشتـراكي الموحّـد"، الموجود في المغرب. وقد دامت هذه التجربة خلال قرابة عشرين سنة (ابتداءً من يوليوز 2002).

وَلِفَهْم مسألة العمل بِـ "التِـيَّارات" السياسية (fractions, courants politiques, political currents)، داخل "الحزب الاشتراكي الموحّد"، يجب الرجوع إلى تاريخ تطوّر الصراعات السياسية داخل هذا الحزب. ومِن المؤسف أنه لم تُنشر بعد أية دراسة حول تَاريخ «الصراعات فِيمَا بين التيارات السياسية»، التي حدثت داخل "الحزب الاشتراكي الموحّد". وقـد اِستـفدتُ مِن المُعطيـات التاريخيـة الـتي قـدّمها المناضـل غـني القبـاج، حيث كـان من بين المشـاركين في تأسـيس أو بنـاء "الحـزب الاشتراكي الموحّد".

وكان "الحزب الاشتراكي المُوَحَّد" هو الحزب الوحيد في المغرب الذي يعمل بأسلوب "التِـيَّارات" السياسية. وهذا الأسلوب يؤدّي، في آخر المطاف، إلى تَكْبِيل الحزب المعني، ثم إلى تخريبه. (أنظر لَمْحَة تاريخية عن تَفَكُّك "الحزب الاشتراكي الموحّد" بسبب "التِيَارَات"، في الفصل الثالث من هذا الكتاب، الحامل للعنوان: "مَا هي أهمّ المُعطيات التاريخية الحديثة حول أحزاب اليسار").

وَيُوجد ترابط مُباشر بين عمل هذا الحزب بأسلوب "التيارات"، وبين احتداد التناقضات داخله، إلى درجة استحالة التعايش، والتعاون، والتكامل، فيما بين "التيارات" السياسية المكوّنة لهذا الحزب.

بدأ العمل بأسلوب "التيارات" في سنة 2002، أي قبل اِنعقاد المؤتمر الأول "للحزب الاشتراكي الموحّد" في سنة 2004.

وكان الهدف (النظري، أو المُرْتَجَى) من العمل بأسلوب "التيارات" داخل "الحزب المُشترك الواحد" هو تَوْفِير فضاء مُلائم لِلتَحَاوُر، ولِلْعَمَل المُشترك، فيما بين أفراد وجماعات تحمل أفكارًا، وتصوّرات، وَطُمُوحَات، سياسية مُتَفَاوِتَة، أو مختلفة. وكانت الغَايَة (مِن اِستعمال "التيارات") هي تَلَافِي الاِنْشِقَاقَات، أو الاِنْقِسَامَات، بين المجموعات الحاملة لِأُطْرُوحَات سياسية مُتَفَاوِتَة، أو مُتَبَايِنَة، أو مُختلفة.

وفي المؤتمر الثاني "للحزب الاشتراكي الموحّد"، المُنْعَقِد في سنة 2007، قُدِّمَت للمُؤتمرين 7 أرضيات. ولم تَحْصُل على "العَتَبَة القانونية" (أي 5 % من الأصوات) سوى 5 أرضيات. وكان العمل بأسلوب "التيارات" يتمّ كالتّالي: أثناء انعقاد مؤتمر الحزب، تُقَدِّمُ كل مجموعة (أو "تِيَّار") أرضية سياسية خاصّة بها. ثم يُصوّت المؤتمرون (كأفراد مُسْتَقِلّين، وليس كَأفراد مُنْضَبِطِين لِهَيْئَة مُعَيَّنَة) على مختلف الأرضيات السياسية المقترحة. ثم تُوَزَّعُ مَقَاعِد "المجلس الوطني"

للحزب بين هذه "التيارات" المُتبارية، وذلك حسب النِسَب المِئَوِيَة التي حَصَلَت عليها مختلف الأرضيات. بينما تُمْنَحُ أغلبية مقاعد "المكتب السياسي للحزب" إلى "التِيَار" الذي حصل على أغلبية الأصوات. و"المجلس الوطني" هو أعلى سلطة في الحزب. وهو الذي يَحْسِمُ في القرارات الهَامَّة. وَيُطْلَبُ مِن "الأمين العام للحزب" أن يعمل كَمُنَسِّق، وليس كَمُقَرِّر، أو كَقَائِد، أو كَزَعِيم. مع التَأْكِيد على ضرورة إِيصَال كل الأخبار والمعطيات، إلى كلّ أعضاء "المجلس الوطني". وكان أولئك المناضلين يُلِحُّون على ضرورة العمل بِأُسْلُوب «***القيادة الجماعية***»، وليس العمل بِأُسْلُوب «قِيَّادة "التيار" الأَغْلَبِي»، وَلَا بِقيادة «زَعِيم» مُعَيَّن (أو «زعيمة»).

لكن مَا حدث بالمَلْمُوس فيما بعد، هو أن المجموعات السياسية المختلفة أخضعت فكرة "التيارات" السياسية الداخلية في الحزب لِلتَّحْرِيف، ولِلتَشْوِيه، لِتلبية مصالح خاصّة، أو لِخِدْمَة طُمُوحات شخصية زَعَامِيَة، أو انتهازية، أو بُورْجْوَازِيَة، أو يَمِينِيَة.

وخطأ العمل بهذه "التيارات" السياسية يأتي خُصوصًا مِن كونها، لَا تعمل كَـ «تيّارات فكرية»، مُلْتَفَّة حول أطروحات سياسية مُتَحَرِّكَة، وإنما تعمل كَ «جماعات عَصَبِيَة»، أو كَـ «قَبَائِل سياسية»، مُكَوَّنَة من أشخاص مُحَدَّدين، وَثَابِتِين. وَلَا يتغيّرُ الأشخاص المُكَوِّنين لِكُلّ "تِيَّار"، وَلَوْ تغيّرت الظروف والأطروحات السياسية. بل تحوّلت "التيارات" بسرعة إلى «أحزاب» قائمة بذاتها، وَمُتَوَاجِدَة داخل الحزب الواحد المُشترك. ويميل كلّ "تيار" إلى القيّام بأنشطة سياسية، أو يقوم بدعاية سياسية، خاصّة به كَ "تيّار" مُتَمَيِّز. وكلّ نشاط سياسي للحزب يُصبح مُنَظَّمًا، ومَحْسُوبًا، بِمنطق «المُحَاصَصَة» فيما بين "التيارات"، وليس بِمَنطق الحزب الواحد المُشترك.

وفي الأصل، كان المطلوب من هذه "التيارات" السياسية، أن تَكُونُ مَرِنَة في مواقفها، ومُتَحَرِّكَة في تَركيبَتِهَا البشرية، وذلك حَسب تطوّر المُجتمع، وحسب تطوّر الأطروحات الفكرية، وحسب تَقدّم الاجتهادات النظرية. لكن في تجربة "الحزب الاشتراكي الموحد" بالمغرب، بَقِيَت هذه "التيارات" السياسية، وخلال قرابة عشرين سنة، ثَابِتَة في جماعات بَشرية مُسْتَقِرَّة، وفي نفس الأشخاص المَعْنِيّين. ولم تَنْحَل هذه "التِيَارَات" داخل الحزب الواحد والمُوَحَّد. ولم تَنْصَهِرْ فيه. بل بَقِيَت هذه "التيارات" السياسية تعمل كَ «أحْزَاب داخل الحزب» الواحد. وَلَا تَتَغَيَّرُ تَرْكيبَة هذه "التيارات" السياسية، حتّى لَوْ تَبَدَّلَت الأوضاع السياسية في البلاد، وَحتّى لَوْ تغيّرت الإشكاليات السياسية المطروحة، وحتى لَوْ تَطَوَّرَت القَنَاعَات الفِكْرِيَة لَدَى أعضاء هذه "التِيّارات".

والغريب أنه، منذ أن بدأ "الحزب الاشتراكي الموحد" العمل بأسلوب «التيارات» السياسية إلى الآن، على امتداد قُرابة عشرين عامًا، لم نشاهد نقاشات فكرية حقيقية، أو صراعات أيديولوجية مُعمّقة، حول أطروحات سياسية، بين هذه «التيارات» السياسية. وإنما رأينا، على الخصوص، تَنَافُسًا، أو تَدَافُعًا، أو تَزَاحُمًا، بين أشخاص، أو بين جماعات، حول مَنَاصِب المسؤوليات القيادية في الحزب. الشيء الذي يُوحِي، أو يؤكّد، أن ***«التيارات» السياسية، المعمول بها داخل "الحزب الاشتراكي الموحد"، هي في الحقيقة «قبائل سياسية»، أو «جماعات عَصَبِيَة»، أو «أحزاب مُصَغَّرَة»، وليست «تِيَارَات فِكْرِيَة».***

والغريب أيضًا أنه، رغم الطابع الحَادّ، والمُتواصل، للصراعات السياسية، الجارية فيما بين "التيارات" السياسية، الموجودة داخل "الحزب الاشتراكي الموحد"، فإن عامّة المناضلين في قوى اليسار الأخرى، وكذلك المناضلين غير المُتَحَزِّبين، لا يَقدرون على مَعْرِفَة، وَلَا

على فَهْمِ، ما هي بالضبط الخلافات السياسية، أو النظرية، القائمة فيما بين "التِيَارَات" المَوْجُودة داخل "الحزب الاشتراكي الموحّد".

ويشهد كثير من المناضلين أن هذه الصراعات (القائمة داخل "الحزب الاشتراكي الموحد") هي ***صراعات بين شخصيات، أو بين «جماعات عَصَبِيَة»، أو بين «قبائل سياسية»، أو بين «زَعَامَات مُشَخْصَنَة»، وليست صراعات بين «تِيَارَات سياسية»، أو بين «أُطْرُوحَات نظرية»، أو بين «مَذَاهِبَ فِكْرِيَة»، أو بين «خُطُوط سياسية» مُتَمَيّزَة، أو مُتَبَايِنَة.***

وكثير من مناضلي اليسار لا يفهمون مثلًا ما هي الخلافات السياسية، أو النظرية، أو التكتيكية، أو الاستراتيجية، الموجودة فيما بين "تِيَّار" الأغلبية المرتبط بالسَّادَة نبيلة مُنِيب، ومصطفى مَسْدَاد، ومصطفى بُوعْزِيز، وابراهيم يَاسِين، ومحمد بُولَامي، من جهة أولى، ومن جهة ثانية "تِيَّار" الأقلية المُرتبط بِالسّادة محمد السَاسِي، ومحمد امْجَاهْد، وعمر بَلَافْرِيج، ومصطفى الشَنَّاوِي، إلى آخره. ورغم الصّراع الحادّ الموجود بين هذين "التيارين"، فإنهما، هُمَا مَعًا، يُعَارِضَان النضال الجماهيري الثوري. وَيَتَهَرَّبَان هُمَا معًا من خوض النضالات الجماهيرية المُشتركة. وَيُؤْمِنَان هما معًا بِإِمْكَانِيَة إِصْلَاح النظام السياسي القائم من دَاخل مؤسّساته الصُّورية. واستراتيجيات هذين التِيَارَيْن، هُمَا معًا، تَقْتَصِرُ على المُراهنة على المُشاركة في انتخابات تُوصِلُ إلى مُؤسّسات شكلية. وَهُمَا معًا يرفضان الماركسية الثورية. ويرفضان الطموح إلى الاشتراكية. ويقبلان العمل في إطار الرأسمالية، كَأُفُق غير قَابِل لِلتَجَاوُز. ويقبلان التَقَيُّدَ بِمَنْظُومَة الانتخابات كما هي. ويرفضان مواجهة مَنَاهِج الرأسمالية. وَيَتَّفِقَان على "تَسْقِيف" النضالات الجماهيرية بِـ "سَقْف" «المَلَكِيَة البَرْلَمَانِيَة».

وَفي تاريخ المغرب الحديث، حدثت العديد من الانشقاقات في أحزاب اليسار. وكانت دائما "التيّارات" «الأكثر ثورية» هي التي تنفصل، أو تَبتعد، عن "التيارات" «الأقلّ ثوريةً»، أو «الأكثر يمينيةً». لكن في حالة الصراعات الحالية التي جرت داخل "الحزب الاشتراكي الموحّد"، لا تعرف عامّة المناضلين مَن هو "التيّار" الأكثر «ثورية»، وَلَا مَن هو "التيّار" الأكثر «يمينية»، مِن بين "التِيَّارَيْن" الرئيسيّين المتصارعين داخل هذا "الحزب الاشتراكي الموحّد".

والسبب في غموض هذه الصراعات بين "تيارات" الحزب الاشتراكي المُوحّد، يرجع لكون هذه "التيارات"، أو «القبائل السياسية»، لَا تُعَبّر، وَلَا تُوضّح، وَلَا تنشر، بما فيه الكفاية، آراءها السياسية، أو النظرية، أو التكتيكية، أو الاستراتيجية. ولا تُمارس النَقْد السياسي المكتوب، أو العلني. وَلَا تُشارك هذه "التِيَّارَات" في النضالات الجماهيرية المُشتركة لِكَي تَظْهَر الفُرُوقَات في كَيْفِيَة تعاملها مع هذه النضالات. ويبقى السِجَّال فيما بين هذه "التيارات" يدور حول: «قَالَ فُلَان»، و«فَعَلَ فُلَان»، و«فُلَان مُمْتَاز»، و«فُلَان أَرْعَن»، و«فُلَان زْوِينْ»، و«فُلَان خَايْبْ»، و«فُلَان مَعَنَا»، و«فُلَان ضِدَّنَا»، إلى آخره. وغالبًا ما لَا يرقى النقاش، أو الجِدَال، فيما بين هذه "التيارات" إلى مُستوى البحث النظري، أو المَوْضُوعِي، أو المُعمَّق، أو العِلْمِي، حَول آراء سياسية، أو حول أطروحات نظرية.

وعندما نقرأ الآراء النادرة التي ينشرها الأفراد أو الجماعات، المتصارعين داخل "الحزب الاشتراكي الموحّد"، نلاحظ أن ***خلافاتهم، لا تدور حول أطروحات فكرية،*** أو حول تكتيكات مختلفة، أو حول برامج استراتيجية، وإنما تدور هذه الصراعات حول التَنَافُس الذَّاتِي فيما بين أشخاص، أو بين جماعات. ونلاحظ أنه لا تُوجد خلافات استراتيجية فيما بين هذه "التيارات". بل يَتَّفِقُ أعضاء مختلف هذه

"التيارات" على الكثير من القضايا الأساسية. وبإمكانهم أن يَتَعَايَشُوا داخل حزب واحد وموحّد، وبدون الحاجة إلى العمل بأسلوب "التيارات" السياسية.

وَبعد تجربة "انهيّار الاتحاد السوفياتي" (في قرابة سنة 1990)، وبعد انتشار التفسير الغربي الرأسمالي لهذا الانهيّار (وهو التَفْسِير الذي يُقُول بأن الماركسية والاشتراكية هما مُجَرَّد «وَهْم»)، أصبحت غالبية أُطُر "الحزب الاشتراكي الموحد" تظنّ أن ***«وجود الديمقراطية داخل هذا الحزب، يستوجب بالضرورة العمل بأسلوب "التيارات" السياسية»***. وأصبح أحد أسس هذا "الحزب الاشتراكي الموحد" هو العمل بأسلوب "التيارات" السياسية داخل الحزب.

لكن نتيجة العمل بِـ "التيارات" التي حَصَدَهَا هذا الحزب، بعد تجربة اِمْتَدَّت خلال عشرين عامًا، لم تكن هي «الديمقراطية الداخلية»، وَلَا هي «تَوْضِيح الرُّؤْيَة السياسية»، وَلَا هي «تعميق الخط السياسي»، وَلَا هي «إِثْرَاء النظرية الثورية»، وإنما هي إغراق الحزب في مُنَافَسَات ذَاتِيَة، أو في مُزَايَدَات عَقِيمَة، أو في صراعات غير مُنْتَهِيَة. وَتَدُور هذه الصراعات، ليس حول أطروحات فكرية، وإنما تَدُور بين أشخاص، وجماعات، يَصْعُب التوفيق بين طموحاتهم الشخصية، أو الذَاتِيَة، أو الزَعَامِيَة.

وَأَدَّى العمل بأسلوب "التيارات"، خلال قُرابة عشرين عامًا، إلى تَبْذِير طَاقات الحزب، وإلى تَكْبِيل مُجمل إِمْكَانَاتِه، إلى درجة أن الحزب لم يَعُد قادرًا على اكتساب أية فعالية في ميدان النضالات الجماهيرية المُشتركة.

وكان دائمًا "التيار" السياسي الذي يحظى بالأغلبية داخل مؤتمر الحزب، يُمارس سُلطة مُطلقة على "التيارات" الأخرى، بَل يُهَمِّشُهَا إلى حدّ الإقصاء. وحتّى داخل "التيار" ذُو الأغلبية في الحزب، لَا نجد العمل

بِـ «الديمقراطية» الداخلية، وإنما نجد مجموعة صغيرة من الأشخاص (على شكل «حزب داخل الحزب») هُم الذين يَنْفَرِدُون بِتَدْبير تطوّر هذا "التيار"، ويُقرّرون كذلك في تطوّر الحزب الشَّامِل المشترك، بعيدًا عن إشراك "التيارات" الأخرى المُنافسة، وبعيدًا عن إشراك أعضاء القواعد الحزبية في التفكير، وفي تهيئ اِتّخاذ القرارات السياسية الهامّة. ***فَلَا يُمكن "لِتيَّارات" لَا تُمارس الديمقراطية داخل هَيْئَاتِهَا الخاصّة، أن تُمارس الديمقراطية مع "التيارات" الأخرى المنافسة لَهَا.***

ومن خلال الاتهامات المُتَبَادَلة فيما بين "التيارات"، يظهر أولًا أن "التيار" ذُو الأغلبية داخل الحزب، لَا يُقَيِّدُ نفسه ***بِتَنْفِيذ قرارات مؤتمر الحزب***، وإنما يمارس توجّهات مخالفة، أو مناقضة لها. ويظهر ثانيًا أن "التيارات" لا تلتزم عُمُومًا ***باحترام صَارِم للقوانين الداخلية للحزب.*** وَيَعْجِزُ عامّة المناضلين المعارضين، أو غير الرَّاضِين عن الفوضى التنظيمية الجارية داخل الحزب المعني، عن ***إِجْبَار مُخْتَلَف "التيارات" على احترام مُجمل بُنُود النظام الداخلي للحزب الشَّامِل المُشترك.***

وكلما كان الحزب يعمل بأسلوب "التيارات" السياسية، يصبح «الوَلَاءُ لِلتّيَار» السياسي أقوى، وأهم، من الوَلَاء للحزب الشَّامِل المشترك. وَتَغْدُو ***«العَصَبِيَة لصالح التيار»*** السياسي أَوْلَى من العَصَبِيَة لصالح الحزب المشترك. وحتّى المبادئ، والمناهج، والأهداف، والمُقَرَّرَات، التي يُسَطِّرهَا مُؤتمر الحزب بِصُعُوبَة في وثائقه الداخلية، تُصبح فَورًا ثانوية بِالمُقارنة مع ضرورة الانتماء إلى "التيَّار" السياسي، وَوُجُوب الدِّفَاع المُتَعَصِّب عنه. ويُصبح المطلوب من العُضو في الحزب هو أَوَّلًا ***الانضباط "للتيّار"*** السياسي، بينما الانضباط للحزب يبقى ثانويّا، أو ضعيفًا، أو ضئيلًا، أو مُنعدمًا.

ويـؤدّي العمـل بهـذه "التيـارات" إلى انـتشار العمـل بـ «***الـزَّبُونِيَة السياسية***» داخل الحزب المعني. وهـذه «الزبونيـة» تُمـارس على شكل مُكَافَأَة مَن يُناصر "الزَّعِيم"، أو مَن يُناصر "التيّار" المعني، عبر تَرْقِيَتِه في التَسَلْسُـل الهَـرَمِي لِلحـزب، أو عـبر منحـه بعض المسـؤوليات في تنظيمـات الحـزب، أو عـبر إعطـاءه بعض الامتيـازات (الـتي قـد تـكون معنوية، أو سياسية، أو غيرها).

وفي إطار العمل بأسلوب "التيارات" داخل الحزب الواحد، يُصبح تطبيق مبدأ «رَبْط المَسْؤُولية بالمُحَاسَبَة» أمرًا صَعْبًا، أو مُستحيلًا. كما تُصبح مُمارسـة ***المُراقبـة المُتبادلـة، والمحاسـبة المُتبادلـة***، غـير مُمكنتين. لأنه مهما كانـت أخطاء، أو نَـقَائِص، أو عُيُوب، أيّ عُضو مُحـدَّد في الحـزب، فـإن المطلـوب منـه هـو فـقط «أن يكـون مناصـرًا مُتَعَصِّبًا "لِتيَّارِنَا" السياسي الخاص بِنَا». أما إذا كان هذا العُضـو من تِيَّار منافس، فَيُـعْتَبَرُ أنـه مَيْؤُوس منـه، ولَا أمـل في نَـقده، وَلَا في مُراقبتـه، وَلَا في مُحاسبته، وَلَا في تَكوينه، ولا في تَثْقِيفِه، ولا في إصلاحه.

وقـد أدّى العمـل بأسـلوب "التيَّارات" السياسـية، داخـل "الحـزب الاشتراكي الموحـد"، إلى ***اِحْتِدَام المُنافسات الشخصية***، وإلى ***تَأَجُّـج الصِّراعات الذاتية***، وإلى ***تَضْيِيع مُعظم طاقات الحزب*** في صراعات داخليـة مُعَـقَّدَة، وَغَامِضَـة، وَعَـقِـيمَة، وَمُزْمِنَـة، فيمـا بين "التيَّارات" السياسـية المُتَوَاجِدَة داخـل هـذا الحـزب. وإذا اِسْتَثْنَيْـنَا المشاركة في الأنشـطة الانتخابيـة العموميـة، يكـاد الحـزب لا يُسـاهم في أيـة أنشـطة نضـالية جماهيريـة مُشـتركة. وَسَـاهَمَ العمـل بأسـلوب "التيـارات" السياسـية، خلال قُرَابَـة عِقْـدَين، في ***تَحْوِيـل "الحـزب الاشتـراكي الموحد" إلى نَـقِيضِه***. أي أنـه تَحَوَّلَ إلى حـزب "غـير اشتـراكي"، و"غـير مُوَحَّد". وأُصِـيب بعض أعضـاء هـذا الحـزب باليـأس، أو الإحبـاط، إلى

درجـة أن بعض قُـدماء أعضـاء هـذا الحـزب اِبْتَعَـدُوا عنـه، وَغَـدَوْا لَا يُؤْمِنُون لَا بِالعمل الحزبي، وَلَا بالنضال.

وبعـد قُرابـة عِقْـدَيْن من العمـل بأسـلوب "التيـارات" (في "الحـزب الاشـتراكي المُوَحَّد")، حدث في شهر يُونْيُو 2021 مـا كـان مُحَتَّمًـا. وهـو انفجار "الحزب الاشتراكي الموحّد"، وانقسـامه إلى "التِيَّارات" الـتي كـان يَتَكَوَّنُ منها أَصْلًا في سنة 2002. وهكذا وَقَع الرُجُوع (في سـنة 2021) إلى نـقطة الانطلاق (التي كانت قَائِمَة في سنة 2002). وهذه "التِيَّارَات" هي : 1) تِيَّار نَبيلة مُنيب (أو تِيَّار «منظمة العمل الـديمقراطي الشـعبي» (OADP)؛ 2) تِيَّار «حركة الوَفَاء لِلديمقراطيـة» بِـقِيَّادة محمـد السّاسِي؛ 3) تِيَّار «حركة الديمقراطيين المستقلين الأحرار» بِقيّادة محمد مجاهد. كَـأَن هــذه "التِــيَّارات" لم تَتَوَحَّد، أو لم تَنْـدَمِج أَبَـدًا، في "الحــزب الاشـتراكي المُوحّد".

وتحوّل هكذا "الحـزب الاشـتراكي المُوحّـد" إلى "تِـيَّارات" تَائِهَة، أو مجموعـات مُتَـعَادِيَة، أو فِـرَق نَاقِمَـة. بَـل تَـزَامَنَ، أو تَرَابَـطَ، انقسـام "الحـزب الاشتــراكي الموحّـد" (في شــهر يُونيــو 2021) مــع اِنْشِـطَار "فيديراليـة اليسـار الـديموقراطي" إلى قِسْـمَيْن مُتَعَادِيَّيْـن. الـقِسم الأوّل يَشْمَل تِيَّار نـبيلة مُنيب (أو تِيَّار «منظمة العمل الديمقراطي الشـعبي»). والـقسم الثاني يشمل "حزب الطليعـة الـديمقراطي الاشـتراكي"، و"حـزب المـؤتمر الوطـني الاتحـادي"، وَتِيَّار «حركـة الوَفَـاء لِلديمقراطيـة»، وَتِيَّار «حركة الديمقراطيين المستقلين الأحرار».

وَمُـعْضِلَة "التِـيَّارَات" (المنظّمـة داخـل الحـزب) هي أنها تهـدف على الخُصُـوص إلى تَـقْوِيَة نَـفْسِهَا. وَتَقْـوِيَة "التِـيَّارَات" يُـؤَدّي بالضـرورة إلى إِضْـعَاف الحـزب المُشـترك. وعلى خلاف كَثِـير مِن الظُنُـون، لا تَـقْدِرُ هـذه ***"التيـارات"*** (المُنظّمـة داخـل الحـزب الواحـد المُشــترك) على العَمَــل كمــدارس فكريــة، أو كَمَذَاهِبَــة فَلســفية، أو

كَتَوَجُّهَات سياسية. وإنما تتحوّل "التِـيَّارَات" إلى "جماعـات" ثَابِتَة عـبر الزمان. وَتَنْبَـنِي "التِـيَّارَات" على أساس صَدَاقَات شخصية قَدِيمَة، أو على أسـاس تَعَـاطُف شخصـي مُتَبَـادَل فيمـا بين أعضـاء مُحَـدَّدين، أو تَنْبَنِي على أساس مصالح مُسْتَتِرَة. ولا تـقدر "التِـيَّارَات" على أن تكـون مَبنية على أساس مبادئ فكرية، أو سياسية. وَقد بَيَّنَت تجربة "الحـزب الاشـتراكي الموحّـد" أنـه يتجمّـع داخـل كـلّ ***"تِـيَار"*** أشـخاص تـربطهم صَدَاقَات، أو قَرَابَات، أو تفَاهُمَات ذَاتِيَة، أو تَوَافُقَات خَفِيَـة. ولا تُسـاعد ***"التيـارات"*** على تنشـيط التنـافس الفكـري فيمـا بين مـدارس نظريـة، وإنمـا تتحـوّل إلى مُـبرّر لِلْحَلَقِيَـة، وَلِلْعَصَـبِيَة، بين جماعـات، أو بين زعامات، تبـقى ثابتة عبر الزمان. وحتّى إذا تطوّرت الأفكـار النظريـة، أو تغيّرت القناعات السياسية، التي يحملها أعضاء كلّ "تِـيَّار"، فإن هـؤلاء الأعضاء يَبْـقَوْنَ أوفياء للانتماء إلى "تِـيَارهم"، أو إلى جماعتهم الخاصّة. وتبـقى هـذه "التيـارات" مُتَمَاسِكَة، ومستـقرّة، ومتواصلة، وغـير عَابِـرَة بالتحوّلات الـتي تحـدث على مستوى الأفكـار، أو القناعـات السياسـية. وتتحـوّل هـذه "التيـارات" إلى صنـف من «الأحـزاب الصـغيرة»، الـتي تَتَـوَاجَدُ داخـل الحـزب الواحـد الكبـير الجَـامِع. فإمّـا أن تـؤدّي هـذه "التيارات" بالحزب الكبير إلى العرقلة، أو أن تُؤَدِّيَ به إلى الانشطار.

وتجربـة «الحـزب الاشـتراكي الموحّـد» في المغـرب (الـذي عمـل بأسـلوب «التّيـارات» خلال أكـثر مِن عِـقْدَيْن) أثبتت بـالملموس أن العمـل بأسـلوب "التّيـارات" يـؤدّي إلى شَـحْذِ العَصَـبِيَة، وإلى تـقْوِيَة الحَلَقِيَـة، وإلى احْتِدَاد المُنَافَسَـات، وإلى تَنَـافُس الزَّعَامَـات الذّاتيـة، ثم يؤدّي (العمل بِـ "التّيـارات") إلى عرقلـة الحـزب المعـني، أو إلى انشـقاق بعض هذه "التيارات" عن هذا الحزب.

وقـد سـبق لي أن نَبَّهْتُ (في صِـيغَة كتـاب "نـقد أحـزاب اليسـار"، المنشـورة على الأنـترنيت في قرابـة سـنة 2012)، إلى أن ***"التيـارات"***

السياسية التي تعمل داخل حزب مُحدّد كـ «قبائل سياسية» مُتَنَافِسَة، وَمُتَنَاقِضَة، وَمُتَنَاحِرَة، ستكون نتيجتها الحتمية، هي أولًا تَكْبِيل طَاقَات الحزب. وهي ثانيًا خَنْق مُجمل المُبادرات المقترحة داخل الحزب المشترك. وهي ثَالِثًا إضعاف الحزب، وَحَبْس إشعاعه السياسي. وهي رابعًا انقسام هذا الحزب المعني إلى جماعات متنافسة، أو مُتَنَاحِرَة. وذلك هو ما حدث فعلًا في شهر يونيو 2021.

ومن إيجَابِيَّات العمل بِأسلوب "التيارات" داخل الحزب، أنه يَدفع كلّ "تِيَار" إلى أن يُعَبِّرَ بِالملموس عن بعض طُموحاته السياسية الخَفِيَة. ورغم المناورات السِرِّيَة لبعض "التيارات" داخل "الحزب الاشتراكي الموحّد"، اِنْفَضَحَت (منذ سنة 2006)ـ ***اِتِّصَالات*** بعض زُعماء "تيارات" مُحَدَّدَة بالسُّلطة السياسية، أو بِخُدَّام القصر الملكي (مثل المستشار المَلَكِي فُؤاد عَلِي الهِمَّة)، وذلك دون إخبار قَواعِد "التِيَّار"، أو الحزب المُشترك. واتَّضَح تَوَجُّهُ بعض هذه التِيَّارات نَحْوَ سُلُوك «التَوَاطُؤ الطَبَقِي»، وَنَحْوَ العمل السياسي الإصلاحي، أو الانتهازي، مِن داخل المُؤَسَّسَات الشَّكْلِيَة، أو المَغْشُوشَة، التابعة للنظام السياسي القائم. وَانْكَشَفَ استعداد بعض "الزعماء" لِمُمَارسة الكَوْلَسَة، والحَلَقِيَة، والمُساومات، المَخْفِيَة على المناضلين القاعديّين.

وَخلال مَرّات عَدِيدَة، زَعَمَ بعض المناضلين أن «وجود تَبَادُل النَقد الفكري، والإبْدَاع النَظَرِي، وَتَعْمِيق الخط السياسي، في الحزب، يحتاج بالضرورة إلى العمل بِأُسْلُوب التِيَّارَات داخل الحزب» ! وهذا التَفْكِير غير سَلِيم. لأن المناضلين الذين يَمْتَلِكُون قُدُرَات على التَحليل، والنقد، والتَقْوِيم، والإبْدَاع، سيقومون بهذه الاجتهادات، سواءً كانت «التِيَارَات» موجودة أم لَا. كما أن المناضلين الذين يَفْتَقِدُون القُدرَة على التحليل، والنقد، والتَقْوِيم، والإبداع، فإنهم لَنْ يَقدروا على القيّام

بهذه الاجتهادات، سواءً كانت «التِيَّارَات» مَعْمُول بها في الحزب أم لَا. فَمِن الخطأ الاعتقاد أن العمل بِأسلوب «التِيَّارات» سَيَخْلُقُ آلِيًّا إِنْتَاجَات مُزدهرة في مجالات التحليل، والنقد، والتَقْوِيم، والابداع النظري. وأكثر من عشرين سنة من العمل بأسلوب «التِيَّارات» داخل "الحزب الاشتراكي المُوَحَّد"، لم يُساعد على ظهور أيّ اِزْدِهَار في مجالات التحليل، والنقد، والتَقويم، والإبداع النظري.

وَيُؤَدّي منطق العمل بِـ «***التِيَارَات***» السياسية (داخل الحزب المشترك) آلِيًّا إلى استهلاك معظم طاقات هذه «التيارات» في صراعات تناحرية تَدُور فيما بين مُختلف هذه «التيارات» المتواجدة داخل الحزب (أو خارجه). وَيَحُثُّ منطق «التِيَّارات» على تَركيز كل الجُهُود على الصراع ضِدَّ «اليارات» الأخرى المُنَافِسَة. الشيء الذي يُؤَدّي بدوره إلى إِهْمَال مُجمل القضايا الأخرى، سواء كانت تنظيمية، أم سياسية، أم نضالية، أم اِسْتِرَاتِيجية، أم غيرها. ويدور منطق «التيارات» حَصْرِيًّا في حدود الرغبة في هزم التيارات المنافسة، ثم القضاء عليها، بهدف الاِنْفِرَاد بِـ «القِيَادَة»، أو بِـ «الزَعَامَة». ويرمي منطق «التيارات» إلى فرض هيمنة «تِيَّار وحيد، ومُطلق، وأبدي». بَيْنَمَا كان يجب أن نَسْتَوْعِبَ أن وجود أي «تِيَّار» يُؤَدّي بالضرورة إلى نُشُوء، وَتَطَوُّر، «تِيَّارات» مُخالِفَة، أو مُنافسة، أو مُناقضة. وكان يجب أن نُدْرِك أن الهدف الأسمى للصراعات الفِكْرِيَة، والنظرية، والسياسية، الموجودة موضوعيًّا داخل الحزب، هو تجاوز «منطق التيارات»، و«الجماعات الحَلَقِيَة»، و«التَحَالُفَات غير المَبْدَئِيَة»، و«القبائل السياسية». وكان يجب أن نُدرك أن الغَايَة مِن أي عمل سياسي داخلي للحزب، هو توحيد مُجمل هذا الحزب، لِكَي يُصبح هَيْئَة جماعية مُوحّدة، تَعْلُو فَوقَ «مَنْطِق التيارات». مع ***الحِرْص على أن لَا تُؤَدّي الرغبة في «الخَلَاص مِن التيارات» إلى إِلغاء الديموقراطية الداخلية في***

الحـزب. كمـا ينـبغي الحِـرْص على عـدم قَمْـع الآراء المُتَـفَاوِتَة، أو المُختلفة. وَيَلْزَمُ كذلك تَجَنُّب الإفراط في استعمال سُلطات الهيئات القيادية المركزية في الحزب. وَيَتَوَجَّبُ تَلَافِي قمع الأعضاء المُخالفين، أو المُعارضين، لبعض قرارات الهيئات القيادية المركزية للحزب. ومن بين أدوار الهيئات القيادية في الحزب، أن تَـدْرُسَ بِعِنَايَـة مُحَايِـدَة، وَبِمَنْهَج مَوْضُوعِي، وَبِرُوح عِلْمِيَة، كل الانتقادات، وكل التحفظات، وكل الخلافات، المُعَبَّر عنها مِن طرف الأعضاء، داخل مُخْتَلَف هيئات الحزب. والهدف من دراسة تلك «الخِلَافات»، أو «الانتقادات»، هو تَعْمِيق المَعَارِف العِلْمِيَة، وإبراز الحقائق الثورية الخَفِيَة، والوصول إلى وحدة فِكْرِيَة وسياسية جديدة للحزب[1]. ويمكن أن تَبْقَى بعض الخلافات الفِكْرية، أو السياسية، مطروحة للنقاش. ويمكن أن يستمرّ فيها البحث الجماعي، والنقاش المُوَازِي. لكن مع الحرص على إعطاء الأسبقية النَامّة، أو الأهمّية القُصوى، إلى النضالات الجماهيرية الثورية المُشتركة، وليس إلى الخلافات الجزئية، أو المُؤَقَّتَة. وَيَبْقَى من حَقِّ أي عُضو في الحزب، في إطار حُرّية التعبير، أن يَنْشُر داخل الحزب آراءه، أو دراساته، الرَّامِيَة إلى نقد بعض مواقف الحزب، أو بعض قرارات الهيئات القيادية المركزية للحزب، بهدف اكتشاف الحقائق الثورية الخفية، وإعادة بناء وحدة الحزب على أساس آراء أو مُقَارَبَات جديدة.

وهذا التَقْيِيم السَّلْبِي السَّابِق لِلعمل بِأُسْلُوب "التِيَّارات"، لَا يعني أن العمل بِـ "التيارات" هو دائما خاطئ، وبشكل مُطلق. وإنما يعني أن الأشخاص الذين اِسْتَعْمَلُوا أسلوب العمل بِـ "التيارات" كانوا غير مؤهّلين للعمل به؛ وأن الظروف التاريخية التي طُبِّقَ فيها، والطريقة التي أُسْتُعْمِلَ بها، هي التي جعلت هذا العمل بأسلوب "التِيَّارات"

(1) Stefan Engel, La crise de l'idéologie bourgeoise et de l'anticommunisme, 1ière partie, Septembre 2021, Verlag Neuer Weg, p. 82-85, www.neuerweg.de.

خاطئا. وَلَو طُبِّقَ أسلوب العمل بِـ "التِيَّارات" بطريقة أكثر مُرُونَة، وأكثر موضوعية، كان مِن المُمكن أن يُصْبِحَ إِيجَابِيًّا. وَلَوْ طُبِّقَ أسلوب العمل بِـ "التِيَّارات" من طرف مناضلين ماركسيّين، أو ثوريّين، أو ابْرُولِيتَارِيّين، وليس من طرف مناضلين يُهَيْمِنُ عليهم نَمَط التَفْكِير البُورْجْوَازِي الصَغِير، لَكَان بِالإِمْكَان أن يُساهم أسلوب العمل بِـ "التيارات" في تَنْشِيط الحياة الفِكْرِيَة، أو في تعميق الأطروحات السياسية، داخل الحزب الواحد المشترك.

ويكون العمل بهذه "التيارات" خاطئا حينما لا تتوفّر شُروطها الضرورية. ***ومن أهم شروط العمل بِـ "التيارات" السياسية، أن تكون هذه "التيارات" مجموعات فِكْرِيَة، أو فِرَق ثَقَافية، أو مَذَاهِب عِلْمِيَة، وأن تكون مَرِنَة، وَمُتَحَوِّلَة، حسب تطور الظروف التاريخية، وحسب تطور الاجتهادات الفكرية، أو النظرية، أو العلمية.*** لكن حينما يكون المُجتمع المعني متخلّفًا، أو حينما يكون فيه الجهل عميقا، والغِشُّ شَائِعًا، أو مُنتشرا، مثلما هو الحال في الكَثِير مِن المُجتمعات المُسلمة، وفي مُعظم المُجتمعات الناطقة بالعربية، فإن "التيارات" السياسية تتحوّل بسهولة إلى «جماعات مُتَعَصِّبَة»، أو تتطوّر إلى «قَبائل سياسية» غير مبدئية.

وحسب تقديري، أرى أنه، ما دَام العُنصر البشري البورجوازي الصغير غَالبًا في قِوَى اليسار، وَمَا دَام نَمَط التَفْكِير البورجوازي الصغير مُنْتَشِرًا داخل أحزاب اليسار، سَيَكُون مِن الخطأ الفادح العمل بأسلوب "التِيَّارات" السياسية داخل أحزاب اليسار.

وفي حالة مَا إذا أَصَرَّت أغلبية الحزب (أو المُؤتمر) على العمل مُؤَقَّتًا بِأسلوب "التِيَّارَات"، يُمكن العمل بهذه "التِيَّارَات" خلال فترة قصيرة اِنْتِقَالِيَة، لَا تَتَجَاوَز مدّتها عامًا، أو عامًا ونصف العام، لِتَمكين مختلف الحساسيات السياسية من التعبير عن أُطْرُوحَاتِهَا الفِكرية، أو

عن اقتراحاتها السياسية. وبعد اِنْتِهَاء هذه الفترة الانتقالية، سواءً أعطت النتائج المَرْجُوَة منها أم لَا، يكون الرجوع إلى العمل بالمركزية الديموقراطية.

وقد يظن بعض قُرَّاء هذا النَصّ، أن أحزاب اليسار التي عَمِلَت بِأسلوب "التيارات" السياسية هي أحزاب مُخطئة؛ وأن أحزاب اليسار الأخرى بالمغرب (التي لم تستعمل "التيارات") هي أحزاب جَيِّدة، أو مُمتازة. وسيكون هذا التأويل خاطئا. والحقيقة المُرَّة هي أن مُجمل أحزاب اليسار بالمغرب تعيش في أزمات مُعقّدة، ومركّبة. وَتُعَانِي مِن ضعف بِنْيَوِي، ومُزمن. لكن هذا موضوع آخر (يُرْجِعُنَا إلى موضوع «نَقد أحزاب اليسار بالمغرب»).

وعلى خلاف بعض التَوَجُّهَات الفكرية، مثل النَّزْعَة السطالينية (stalinisme)، يلزم أن نُدرك أن ***تَنَوُّع مُكَوِّنَات اليسار، هي ظاهرة طبيعية، وموضوعية، ومتواصلة، أو دائمة.*** وَهُو مُخْطِئ كل مَن يَتَوَهَّم أنه بِإِمْكَانه أن يُوَحِّدَ كل مُكَوِّنَات اليسار في حزب واحد. وَهُو مُخْطِئ كلّ مَن يظنّ أنه بواسطة سلسلة من النِقَاشَات، أو بواسطة "التِيَّارَات"، يمكن أن نجعل كلّ مُكَوِّنَات اليسار تَتَّفِقُ على كلّ شيء. وحتى لو عَمِلَ حزب مُعَيَّن بِأسلوب "التِيَّارَات" خلال قَرْنٍ مِن الزمان، فإنه لن يستطيع محو كل الخلافات الفكرية أو السياسية بين أعضاءه. بل إن ***تفاوت الآراء والتصوّرات فيما بين المناضلين اليساريين، وحتى فيما بين "التّيارات"، والأحزاب اليسارية، هي ظاهرة مَوْضُوعِيَة، وَمُتَجَدِّدَة، وَمُتَوَاصِلَة، وَحَتْمِيَة، ولا يُمكن حَذْفُهَا.*** والعقل السّليم، هو الذي لا يشترط تطابق الآراء في كل شيء، بل يجتهد لتأسيس وَخَوْض ***النضال الجماهيري المُشترك***، ولو تَفَاوَتَت نسبيا الآراء السياسية للفاعلين المعنيين. ويكافح ضدّ تَشْتِيتِ القِوَى، أو تَشَرْذُمِهَا. كما أن الحاجة إلى الفعالية السياسية، تُوجب تَنسيق الجُهود، وَتَوْحِيد المُمَارَسَة

النضالية، في إطار سياسي واحد وموحّد، مثلا على شكل تنسيق، أو تحالف، أو فدرالية، أو جبهة وطنية تقدمية، أو ما شابه ذلك. خاصة وأننا لا زلنا في مرحلة التّحرر الوطني الديمقراطي الشعبي.

وإذا لم تَقُم قِوَى اليسار بعمليات ***التَقْييم، والتَقْويم، والتَثْوير***، فإنها سَتُصبح مُتخلّفة، ثم ستَخْتَفِي مِن السّاحة السياسية. وقد تُعوّضها قوى ثورية أخرى من نوع جديد. لأن الصراع الطبقي لَا يتوقف إلّا مع زوال الطبقات من المُجتمع.

رحمان النوضة

(وحرّر هذا النصّ في 9 يليوز 2021. وهو مُقْتَطَف من كتاب "نَقد أحزاب اليسار بالمغرب"، الصيغة 54).